خطبة صلاة الجمعة 31/5/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الإسراء والأزمة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَقِيتُ ليلة أُسرِيَ بي إبراهيمَ، فقال لي: يا محمدُ، أَقْرِئ أُمَّتكَ منِّي السلامَ، وَأَخْبِرهم: أَن الجنةَ طَيِّبَةُ التُّربة، عَذْبَةُ الماء، وأنها قِيعانٌ** -يعني مستوية تُمْسِكُ الماء وتُنْبِتُ العُشْبَ-، **وأَنَّ غِراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**» [أخرجه الترمذي].

وقال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: «**يُؤتَى بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بها كما يدُور الحمار في الرَّحَى، فيجتمع إِليه أَهلُ النار، فيقولون: يا فُلانُ، ما لَكَ؟ أَلَم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأَنْهَى عن المنكر وآتيه**» [أخرجه البخاري ومسلم].

وقال: «**مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرَض شفاهُهم بمقاريض من نار، قلت: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**» [أخرجه أحمد].

عنوان خطبة اليوم:

(الإسراء والأزمة)

عشر سنوات مضَت قاسيات يعاني فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله وأصحابه الكرام أنواعَ الآلام وأصناف الكرب وأشكال البلاء، فمِن تكذيبِ عمِّه له وعشيرته: (تبًّاً لك ألهذا جمعتنا)، إلى نشر الشائعات عنه وترويج الكذب والإفك، فحيناً يقولون: ساحر، وحيناً: شاعر، وحيناً: مجنون، وحيناً: يأتيه رئي من الجن...

وتبدأ قريش سياسة التعذيب والتجويع والتهجير والقتل، فيُلقَى بلال على الرمال في الرمضاء، ويُعلَّق الزبير بن العوام –وهو ابن أربع عشرة سنة– في حصير ويُدخَّن عليه ليرجع إلى الكفر، وتضع أم أنمار الحديدة المحماة على ظهر خبَّاب بن الأرتّ حتى تبرد بشحم ظهره، وحتى صار في ظهره مثل الأخاديد، ويموت ياسر وسميَّة وثوبية وغيرهم –رضي الله عنهم– تحت التعذيب، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]

ويبدأ الحصار الظَّالم في شِعب أبي طالب: لا تبيعوا محمَّداً وأصحابه شيئاً، ولا تشتروا منهم، لا تزوجوهم ولا تتزوجوا منهم، وحرام على رجل إمدادهم أو معونتهم ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]

ثلاث سنوات يعصرهم الجوع عصراً، ويعلو بكاء الأطفال حتى يُسمَع من وراء الشعب، ويموت قوم سَغَباً[1]..

هاجَر بعض الصحابة من بلدهم، وتركوا مكة مكرَهين إلى الحبشة، هجرة أولى وثانية، ينجون بأنفسهم وبأهليهم.

---

[1](?) السَّغب: الجُوعُ، وقيل: هو الجوعُ مع التَّعَب، وربما سُمِّيَ العَطَش سَغَباً. [لسان العرب].

إنها صنوف الآلام وأنواع البلايا تتوالى تترى على الرسول الكريم وصحابته الأطهار، وليس يجد مِن معين بعد الله غير الجماعةِ المؤمنة المستضعَفة، ثم زوجه خديجة وعمّه أبي طالب، فلما كانت السَّنَة العاشرة للبعثة ماتت خديجة ثم أبو طالب، ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نالت.

يبدو –أيها الإخوة– أنَّ السُّنة الماضية في هذه الأرض أنَّ على أهل الحق أن يوطِّنوا أنفسَهم لاستقبال البلاء، وأنْ يعدُّوا للكرب عدَّته، فهم وإن كانوا يألَمون فعليهم أن لا ييأسوا، وهم وإن كانوا يتوجعون فعليهم أن لا يتراجعوا؛ لأنهم يعلمون أن اشتداد المصائب إيذان بالفرج.

مرَّت عشر سنوات موجِعاتٍ قاسيات لتأتي بعدها المكافأة الإلهية والمعجزة الربَّانية والعطيَّة الرَّحمانية، إنها الإسراء والمعراج، أسرى الله تعالى بسيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم روحاً وجسداً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمَّ عُرِجَ به إلى السَّموات العُلا، التقى فيها بإخوانه الأنبياء وأطلَعَه الله تعالى على شيءٍ من عوالم الآخرة، وطمأَنَه على مستقبل دعوته، وفرض الصلاة على المؤمنين في السَّماء خمساً في اليوم والليلة، وكل العبادات فُرِضَت في الأرض إلا الصلاة، فإنها فُرِضَت في السَّماء؛ لأنها عماد الدِّين، وهي معراج المؤمن، فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئناً قلبُه، جديدةً عزيمتُه، ماضياً في رسالته، واثقاً بأن العاقبة للتقوى وللمتقين ولأهل الحق على الظالمين.

أيها الإخوة:

الفرَج بعد الشِّدَّة سنَّة ماضية على مرِّ الزمان، واليُسر مع العسر آية محكَمة من آيِ القرآن، والبلايا ممحاة الخطايا، ولكل أجَل كتاب.

أيها الإخوة:

في القرآن الكريم سورة –كما تعلمون– اسمها سورة الإسراء، تسمى سورةَ الإسراء، وسورة بني إسرائيل، وسورة سبحان، جاءت في أحد عشر آية ومائة، نزَلَت على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد حادثة الإسراء، أوَّلها تسبيح وآخرها حمد وتكبير:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الإسراء: 111]

روت السَّيدة عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطِر، ويُفطِر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة "بني إسرائيل"، و"الزمر") [أخرجه أحمد].

-ونقرأ في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: 16]

قال المفسرون: تأتي على ثلاث معان:

الأول: وإذا أردنا أن نُهلِك قريةً أمَرنا مترَفيها بالطاعات، فلم يستجيبوا وعصَوا وبغَوا وطغَوا، فحقَّ عليهم القول، فدمرناهم تدميراً.

والثاني: وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمَّرنا -بالتَّشديد- مترفيها، أي: جعلناهم أمراء فيها، فطغَوا وبغَوا، فحقَّ عليهم القول فدمرناهم تدميراً.

قال القرطبي في تفسيره: (أي: سَلَّطْنَا شِرَارهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ. وَقَالَ أَبُو عثمان النهدي: جعلناهم أُمَرَاءَ مُسَلَّطِينَ).

والثالث: وإذا أردنا أن نُهلك قرية آمرنا -بالمدّ- مترفيها، أي: كثّرناهم فطغَوا وبغَوا، فحقَّ عليهم القول فدمّرناهم تدميراً.

- ونقرأ في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: 81]

قال الشيخ الشعراوي -رحمه الله- في تفسيره: (هكذا أطلقَها الحق سبحانه شعاراً مُدوّياً: ﴿جَاءَ الْحَقُّ..﴾ وما دام قال للرّسول: ﴿قُلْ﴾ فلا بُدَّ أن الحقَّ قادم لا شَكَّ فيه).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾: زَهُوق صيغة مبالغة، فالباطل سريعاً ما يذهب ويندثر، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسَه من جنود الله؛ لأن الباطل لو لم يُؤلم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه، فإذا ما لدغهم الباطل واكتوَوْا بناره عرفوا الحق.

-وأخيرا نقرأ في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ [الإسراء:82]

قال ابن كثير: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يُذهب ما في القلوب من أمراض، من شكٍّ ونفاق وشِرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كلِّه. وهو أيضاً رحمة، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدَّقه واتَّبعه، فإنَّه يكون شفاءً في حقِّه ورحمة.

وأما الكافر الظَّالم نفسه، فلا يزيده سماعُه القرآنَ إلا بعداً وتكذيباً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]

وقال القشيري: القرآن شفاءٌ من داء الجهل للعلماء، وشفاءٌ من داء الشِّرْكِ للمؤمنين، وشفاء من لواعج الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبُكَ حَوْلِي لا تفارق مضجعي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾: الخطاب خطابٌ واحد، الكتاب كتابٌ واحد، ولكنه لقوم رحمةٌ وشفاء، ولقوم سخطٌ وشقاء، قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشي على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شِقاء.

أيها الإخوة:

هذا حديث عن الإسراء والأزمة، ونحن وإن كنا نعيش اليوم أيَّام الشدائد والمِحَن، فإنَّا نرجو الله بصبْرِنا وعوننا للخير وأهلِه وانضباطنا بالشَّرع ونهجه مِنَحاً من الله يَجبر بها كسْرَنا، ويُحسِن بها منقلَبَنا، ويرزقنا بها سعادة الدارين..

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]

والحمد لله رب العالمين